

جماليات قصيدة المديح النبوى في الشعر الشعبي الجزائري

قصيدة العقيقة للمنداسى نموذجاً

أ. عبد اللطيف حنى
المركز الجامعي بالطارف

ملخص: يقوم هذا المقال على مقاربة نقدية تهدف إلى التطرق لموضوع المديح النبوى في الشعر الشعبي الجزائري، وذلك بكشف مفهومه واتجاهاته وأساليبه وتعابيره الفنية، متخدzin من قصيدة الشاعر الشعبي سعيد بن عبد الله المنداسى التلمسانى "العقيدة" نموذجاً لأهميتها وقيمتها الأدبية عند النقاد والدارسين، وذلك بتسليط ضوء التحليل الموضوعاتي والفنى على بنيتها ومعمارها، حيث نحاول إماطة اللثام عن مساهمة الشاعر الشعبي الجزائري في هذا الفن الرائد في أدبنا العربي.

Abstract:

Promote this article on a critical approach aimed at addressing the subject of praise of the Prophet in the popular poetry of Algeria by exposing the concept and trends, methods and Meanings of art putting in a poem by poet People "Said ben Abdallah Almndasi Tlemcenii" "aqeeqah" model for the importance and value of literature when critics and scholars, that shed light Modoati analysis and technical structure and architecture, where we try to unravel the contribution of the Algerian People's poet in this art pioneer in Arab literature.

1- مفهوم المديح النبوى : يعتبر المديح النبوى فناً من فنون الشعر التي نشرها التصوف وساهم في إذكائها، وهو لون «من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع، لأنه يصدر عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»⁽¹⁾

تبضم بحب النبي ﷺ وبتعدد صفاته الخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره وروضته الشريفة، كما يهتم هذا الشعر بذكر معجزاته المادية والمعنوية والإشادة بفزواته وصفاته المثلثة، والإكثار من الصلاة والسلام عليه تقديراً وتعظيمها، وطلب الأجر من الله عز وجل بالثناء عليه ﷺ.

وغالباً ما يجتهد الشاعر المادح لإظهار تصويره في أداء واجباته الدينية والدنيوية، كما يذكر آثامه وسيئاته وكثرة ذنبه في الدنيا معترفاً بها ومظهراً كل مستتر، ثم يناجي الله تعالى بصدق وشوق راجياً منه التوبة والمغفرة، وينتقل بعد ذلك إلى الرسول ﷺ طاماً في وساطته وشفاعته يوم القيمة، ومتوسلاً بأسمائه وصفاته التي عرف بها.

ويتميز المديح النبوي بالصدق والإخلاص والنقاء من كل شائبة، والخلو من كل ظن ويختلف تماماً عن المدح التكسيبي أو المدح التملقي الموجه للأشخاص والأعيان والأمراء والملوك، لأنه مدح خاص لأفضل خلق الله وأحسنهم على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ، فهو معبأً بالصدق والوفاء والمحبة، تعمره التجربة الروحية والعشق لشخصه الكريم، فحبه من العقيدة وواجب على كل مسلم.

2- نشأة المديح النبوي في الأدب العربي : لاح نور المديح النبوي مبكراً في المشرق العربي، وذاع وانتشر بانطلاق وشيع الدعوة الإسلامية، وكثير في شعر الفتوحات الإسلامية، حتى ربط خيوطه وامتزج بالشعر الصوفي مع ابن الفارض والشريف الرضي، الذين حملوا على عاتقهما الإشادة بهذا الفن والإحاطة به «ولكن المديح النبوي لم ينتعش ويزدهر، ولم يترك بصماته إلا مع الشعراء المتأخرين وخاصة مع الشاعر البوصيري في القرن السابع هجري الذي عارضه كثير من الشعراء الذين جاؤاً بعده، ولا ننسى في هذا المضمار الشعراء المغاربة والأندلسيين الذين كان لهم باع كبير في المديح النبوي عند الدولة المرinية»⁽²⁾.

وقد ساد الاختلاف بين الباحثين حول نشأة المديح النبوى، فزكى مبارك يرجع ظهوره في المشرق العربي إلى ظهور الدعوة الإسلامية وانتشار الفتوحات الإسلامية، وذلك مع جمھور الصحابة خاصة عند شعراء الرسول ﷺ؛ مثل حسان بن ثابت وکعب بن مالك، وکعب بن زھير وعبد الله بن رواحة، وعباس الجراري يذهب إلى أنه فن مستحدث جديد على البيئة الإسلامية «ولم يظهر إلا في القرن السابع الهجرى مع البيوصيري، وابن دقیق العید»⁽³⁾.

ويعد القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة المنھلين اللذین تستوحى منھما قصائد ودواوین المديح النبوی مادتها الإبداعیة، ورؤیتها وصورها الإسلامية، كما تتجلى إلى كتب التفسیر والسیرة النبویة التي فصلت حیاة الرسول ﷺ تفصیلاً کبیراً، ووضحت جوانب عدیدة من حیاته وسیرته ﷺ «کما يظهر ذلك جلياً في تفسیر ابن کثیر على سبیل التمثیل، تلیه کتب السیرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي کتبت حول سیرة الرسول ﷺ سواء كانت قديمة أو حدیثة، وأذکر على سبیل المثال السیرة النبویة لابن هشام، وسیرة ابن إسحاق، والرھيق المختوم لصفی الرحمن، والسیرة النبویة لابن الحسن بدوى، والسیرة النبویة لابن جنان، والوفاء لأبی الفرج عبد الرحمن الجوزی، والشفا بتعريف حقوق المصطفی للقاضی عیاض»⁽⁴⁾.

ويعد ما قاله عبد المطلب عم النبي ﷺ إبان ولادته ﷺ أول ظهور لشعر المديح النبوی، حيث شبه ولادته الشریفة بالنور والإشراق الذي أنار الكون وملا الآفاق سعادة وفرحا وبهاء، حيث يقول :

وأئَتَ فَمَا وَلَدْتَ أَشْرَقْتَ
الْأَرْضَ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْقَ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضَّيَاءِ وَفِي

ويعتبر حسان بن ثابت ﷺ رائداً المدح النبوی، الذي أحب ودافع عن الرسول ﷺ، وامتلاً دیوانه بعیون قصائد المديح، وجاء بعده شعراء على مر العصور

الأدبية اهتموا بهذا الفن، ونظموا في مضمونه الكثير من القصائد التي تترجم حبهم وعشقهم بشخص النبي ﷺ، وتعكس قيمته في نفوسهم.

3 - المديح النبوي والبدعيات : علينا في هذا المقام أن نفرق بين البدع في قصائد المديح النبوي بشكل عام، والذي يسمى بالبدعيات، وهو فن جديد ابتكره أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي المولود عام 689هـ، الذي اتسم مدحه بالحب العظيم للرسول ﷺ، كما يحرص فيها الشاعر على إظهار الحب الصادق والعاطفة السامية القوية، لأنه لا يرجو من مدحه تكسيراً دنيوياً مادياً وإنما يسعى للتعبير عن مدى حبه للرسول ﷺ، لينال رضاه وشفاعته، والبدعيات فن مبتكر حيث « تكون القصيدة في مدح الرسول، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البدع»⁽⁶⁾.

وفي فن البدعيات لا يكون هم الشاعر « عند نظم البيت أن يبلغ مبالغ الصادقين في مدح الرسول ﷺ »، وإنما كان همه أن يجيد الإفصاح عما يقصد إليه من فنون البدع⁽⁷⁾، لكي يظهر براعته البلاغية وقدرته اللغوية واتساع ملكته اللغوية وزاده الصرفي.

وقد خاض شاعرنا سعيد بن عبد الله المنداسي⁽⁸⁾ غمار المديح النبوي في شعره الشعبي، وحاز حصة الأسد فيه منتهجاً في قصائده طرقاً مختلفة، فيها كثير من مظاهر القصيدة العربية التقليدية المধية القديمة، كالاستهلال بالصلوة والسلام على النبي ﷺ، والشاء عليه والدعاء لله ﷺ بالتوفيق في هذا المديح، ثم ذكر صفاته الخلقية (الجسدية)، والتقارب لله تعالى بمدحه، ورجاء شفاعته ولقاءه يوم الحشر، ثم الختام يكون بالصلوة عليه والابتهاج.

4 - قصيدة "الحقيقة" في مدح النبي ﷺ : فسح الشعراء الشعبيين مساحات كبيرة في دواوينهم لمدح خير البرية، والإشادة بأخلاقه ورسالته العلمية ومنهم شاعرنا المنداسي الذي كان مدحه بطريقة مختلفة حيث تشبهت قصائده الشعبية بمظاهر القصيدة العربية التقليدية، وذلك في معمارها الفني حيث كان

يحرص على الوقوف على الأطلال والمرور إلى الرحلة والتطرق للغزل والوصف والمدح لكنه كان موجهاً لشخص الرسول ﷺ بخلاف الشاعر القديم الذي وجه مدحه للأشخاص والأعيان.

ومن مجموع قصائده المدحية أشاد الدارسون بقصيدته المدحية العقيقة التي نظمها في التعني بالشمائل المحمدية، ونظم المنداسي للشعر الملحون ليس عن ضعف أو عجز أمام الشعر الفصيح، وما يدل على امتلاك المنداسي لнациمة اللغة العربية له ديوان فصيح، وتوجهه للشعر الملحون لغاية التقرب من المتلقي وإيصال أفكاره له جلية واضحة وهذا ما يبينه الدكتور سعد الله في سبب نظم الشاعر للحقيقة بطريقة ملحونة حيث يقول : (وكان مقصده من كتابة العقيقة بالعامية تقريب معانيها من العامة مع الاحتفاظ بمستوى لغوي وأدبي وتاريخي لا يدركه إلا الخاصة) ⁽⁹⁾.

ولأهمية العقيقة في المديح النبوى لقيت الشرح والتوضيح من طرف العديد من الأدباء والمؤرخين وأهمهم أبو رأس الناصر (1165 - 1238 هـ) وأحمد بن سحنون .

وقد عنون أبي راس شرحه للحقيقة "بالدرة الأنثقة في شرح العقيقة" وسبب تأليفه لهذا الشرح القيم إعجابه بها على الرغم من أن نظمها ملحونة إلا أنها احتوت على غرائب وعجائب من اللغة والبلاغة واللحون⁽¹⁰⁾ ، وهناك دافع آخر يتمثل في أن البعض ممن تأثروا إعجاباً وحبًا بالحقيقة سأّلوا أبي راس أن يضع عليها شرحاً (يفصح عن تلك المقاصد من تلك المقاصد اللغات، وبذلك ما فيها من الأبيات، وإن يكون باختصار لداعية الضرورة إلى الاقتصاد، وتشيط للاطلاع، وانتهازاً لفرصة الانتفاع) ⁽¹¹⁾ .

أما شرح ابن سحنون فقد عنونه " بالأزهار الشقيقة" وسبب تأليفه لهذا الشرح يعود إلى نعي ابن خلدون على أهل المغرب إهمالهم روایة أشعارهم، مما

جعل أنسابهم وأخبارهم تنسى وتضيع، فكان رد ابن سحنون بشرح العقيقة وفك
مغاليقها وشرحها مبهمها.

إن هذه الشروح تكشف عن القيمة الأدبية والتعبيرية للعقيقة، رغم نظمت
بلغة ملحونة، غير أنها لم تنتف عنها صفة البلاغة والشعرية، وهذا ما ينطبق
على جل شعرنا الملحون الذي يكتفى على أسرار تعبيرية وبلاغية وجمالية
 تستحق منا كدارسين وناقدين الالتفات إليها وتشمينها وبذلك إنصاف هؤلاء
الشيوخ المبدعين .

5 - البناء الموضوعاتي للعقيقة : اشتغلت العقيقة على موضوعات
القصيدة الجاهلية من وقوف على الأطلال إلى الانتقال إلى باقي الأغراض
الأخرى، وكأني بالشاعر تعمد هذا النظام حتى يزرع في قصidته روح الأصالة
والانتماء إلى عمود القصيدة العربية القديمة، وكذلك للبرهنة على قدرته نظم
الشعر الفصيح فهذا ملمح من ملامحه، وأن المنداسي لم يستطع التخلص من
نظام النظم الفصيح فالفارق هو اللغة فقط، وعليه يمكننا تقسيم موضوعات
العقيقة إلى :

أ- الغزل : يفتح المنداسي قصidته المدحية في شخص الرسول ﷺ بالغزل
 شأنه في ذلك شأن كعب بن زهير في البردة، حيث يتغزل المنداسي بالمناطق
المجاورة لملكة المكرمة فيقول :

كَيْفْ يَئِسَ قَلْبِيْ عَرَبُ الْعَقِيقِ وَالْبَانِ
لَيْ عَقِيقَةٌ مِنْهُمْ غُرَّةٌ مِنْهُمْ شَفَقَةُ الْبَانِ
بَانْ صَبَرِيْ السَّرُّ الْكَاثِمُ الصَّدَرُ بَانْ
وَالْعَقِيقُ أَعْيُونِي بِأَقْلَا يَدُهُ أَهْلُوا

هلْ قَلْبِيْ مِنْهُمْ بَعْضُ الْوَصَالْ هَلْ لَهُ
كَيْفْ يَمْهُلْ دَمْعِيْ وَالْوَجْدُ لَا مَهْلُ لَهُ

فقلب المنداسي معلق بالحقيقة وهو واد يبعد عشرة أميال من المدينة المنورة
وماجاور الروضة المحمدية، فالدموع تهمر شوقاً إليها والصبر قد انقضى تطلعها
إلى أرضها الطاهرة، فالشاعر مشدود بقلبه وروحه إلى مدينة الحبيب، فكيف
يصبر دمعه ووجده .

ويحيط المنداسي العقيقة بالغزل وذلك بالحديث عن محبوبه الذي هجر وتركه وحيدا دون أن ينال ما يريد منه ولم تشبع روحه منه ولم تتمتع عينيه من جماله، فيقول :⁽¹³⁾

آهٌ عَلَىٰ مَنْ عَشْقٌ وَلَا نَالُ الْمَطْلُوبُ
فَلِبَهُ مَا أَعْلَاظُ حُجَّابُ الصُّونِ عَلَيْهِ
وَأَصْبَحَ مَمَّا لَقِيَ مَنْ الرَّاحَةُ مَسْلُوبٌ بِأَحْبَالِ الْوَاهِيَّةِ يَدُ الْحُسْنِ تَدْلِيَّهُ
وَلَا يَتَوَانَى الْمَنْدَاسِيُّ عَلَىٰ وَصْفِ حَبِيبَتِهِ الَّتِي تَرَكَتْهُ وَأَشَرَتْ بَيْنَ عَلَىٰ
اللَّقَاءِ، فَيَصُورُ لَنَا جَمَالَهَا الْفَتَانَ مَدْقَفًا فِي كُلِّ جَمَالِيَّةِ مِنْ جَسَدِهَا، حَتَّىٰ يَلْوَحُ
لَنَا طَلْفَهَا نَتْيَاجَ دَقْتِهِ وَحَسْنَ اخْتِيَارِ الْفَاظِهِ وَتَعَابِيرِهِ الَّتِي شَكَلَتْ صُورَهُ الْفَنِيَّةَ
حَيْثُ يَقُولُ :⁽¹⁴⁾

آهٌ مَنْ الْحَاجِبِيُّنَ وَالْفَرَرَةُ وَالْعَيْنُ
وَالنَّفَرُ مَدَادِيٌّ إِذَا رَنَ صَدَاهَا
وَالصَّدَرُ الْمَرْمُرِيُّ الْمَرْفَعُ الْحَقِيقَيْنُ
وَلَا تَرْكُوا يَمَاشِرُ الْكَشْحُ رُدَاهَا
لَوْ بَصَقْتَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَجْمَعِ بَحْرَيْنِ يَضْحَى سَلْسَالُ كَوْثَرِيُّ طُولُ مُدَاهَا
وَرَغْمُ مَا فَعَلَهُ الْأَحَبَّةِ بِهِ إِلَّا أَنَّ الْمَنْدَاسِيُّ يَظْهُرُ كَرِيمُ خَلْقٍ، حَيْثُ يَسْتَمِيتُ
نَفْسُهِ مَخْلُصًا مَهْمَا تَغَيَّرَتِ الظَّرُوفُ وَيَادُرُوا بِالْبَيْنِ وَالْبَعْدِ، فَيَقُولُ :⁽¹⁵⁾
نَبَاتُ وَاجْسُنْ قَلْبِيُّ يَرْعَى النُّجُومُ شَاهِدٌ وَلَا تَفَيِّرُ الْأَحْوَالُ مُحْبِتِيُّ الْقَدِيمَةُ
فَالشَّاعِرُ غَرْضُهُ مِنْ هَذَا الغَزْلِ إِظْهَارُ مُحْبَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ، غَيْرُ مَكْتُرَثٍ لِمَا
يَقُولُهُ الْعَادِلُونَ، فَحَالَهُ مَعْرُوفُ عِنْدِ الْعَامِ وَالْخَاصِ :⁽¹⁶⁾

مَا تَحْشَى لَوْمَ حَدْ سَرِيُّ مَا تَكْمِيَةُ
تَعْرَفْنِي النَّاسُ عَبْدُهَا عَاشَقُ وَحْدَيْمُ
ج- الوقوف على الأطلال وألم الفراق: وينتقل المنداسي في العقيقة بعد
هذا التغزل إلى الوقوف على الأطلال(المنازل)، مظهراً تعليق قلبه بالراحلين
المأشين إلى رحاب الروضة الشريفة:⁽¹⁷⁾

بَعَدَتْ يَا يَحْيَىُ الْأَعْرَابُ بِالْمَنَازِلِ تَعَبُ قَلْبِيُّ خَلْفُ عَجَاجُ الْهَجَانُ وَظَلَمَاهُ

ويخبرنا المنداسي انه تعلق قلبه بالروضة الحمدية تعلاقا مطلقا ، فنفسه
ظمآنـة لها وروحـه تسافـر إليها عبر الخيـال ، والدـمـع ينزل مـدرـارا من العـيون شـوقـا
إلى رياحـينـها فالـطـرفـ حـمـرـ من الأـسـيـ وـمـرـ هـواـها ، حيث يقول :

غـيرـهـا مـا يـسـحرـ قـلـبـيـ جـمـالـ فـتـانـ صـوـنـ لـمـحـبـتـهاـ مـنـ ضـمـنـيـ ئـمـلـهـ
يـبـاتـ مـدـرـارـ الـدـمـعـ مـنـ الـعـيـونـ هـتـانـ كـلـ مـا سـأـلـ الـطـرـفـ مـنـ الـهـوـيـ كـمـلـ لـهـ

وتـشـتـدـ بالـشـاعـرـ الحـسـرـةـ نـتـيـجـةـ الفـرـاقـ الذـيـ أـلـمـ قـلـبـهـ وـأـتـعـبـهـ وـأـبـقـاهـ فيـ حـيـرةـ
وـأـسـيـ ، فـالـنـوـيـ لـهـ بـالـمـرـصـادـ فـكـلـمـاـ أـرـادـ اـسـقـرـارـاـ أوـ هـنـاءـ وـرـاحـةـ مـعـ الـأـحـبـةـ إـلـاـ
كـانـتـ الـفـجـيـعـةـ وـالـمعـانـةـ وـفـيـ هـذـاـ يـقـولـ الشـاعـرـ :⁽¹⁸⁾

هـكـدـاـ يـيـقـنـ قـلـبـيـ بـالـفـرـاقـ لـهـفـانـ كـلـ مـا تـرـبـطـ كـرـهـهـ يـدـ النـوـيـ تـحـلـهـ

وـأـمـامـ هـذـهـ الـحـالـةـ الـمـرـضـيـةـ الـمـتـعـبـةـ لـنـفـسـيـ الشـاعـرـ لـاـ يـجـدـ مـلـاـذاـ إـلـاـ التـأـسـيـ
بـسـنـةـ الـحـبـبـ الـمـصـطـفـ⁽¹⁹⁾ ، فـهـوـ الـأـسـوـةـ الـحـسـنـةـ وـالـمـحـجـةـ الـبـيـضـاءـ ، حيث يقول :
رـأـحـتـيـ تـنـزـلـ كـمـاـ الرـزـقـ مـنـ سـمـاـهـاـ مـحـجـتـيـ الـبـيـضـاءـ حـيـنـ تـضـيـقـ بـيـ الـمـدـأـهـبـ
وـفـيـ الـمـوـقـعـ نـفـسـهـ يـشـيدـ الـمـنـدـاسـيـ بـأـصـحـابـ وـقـومـ وـأـهـلـ رـسـوـلـ اللـهـ⁽²⁰⁾ وـمـعـتـزاـ
بـأـخـلـاـقـهـ وـقـيـمـهـ وـعـادـاتـهـ ، وـنـاعـيـاـ عـلـىـ الـعـرـبـ الـمـعاـصـرـيـنـ اـخـتـلـافـهـمـ عـنـ السـلـفـ

وـالـتـنـكـرـ لـصـفـاتـهـ وـأـخـلـاـقـهـ ، وـفـيـ هـذـاـ يـقـولـ :⁽²⁰⁾

هـدـيـكـ الـعـرـبـ الـكـرـامـ مـا يـدـرـكـهـاـ لـوـمـ وـعـرـيـبـ الـيـوـمـ قـوـلـهـاـ وـالـفـعـلـ سـرـابـ

دـ التـفـنـيـ بـالـخـمـرـ الـصـوـفـيـةـ : يتـفـنـيـ الـمـنـدـاسـيـ بـالـخـمـرـةـ ، ويـظـهـرـ إـقـبـالـهـ
عـلـيـهـاـ ، لـيـنـسـىـ هـمـومـهـ وـآلـاـمـهـ الـتـيـ لـحـقـتـهـ جـرـاءـ الـأـحـبـةـ وـفـرـاقـهـمـ ، حيث يقول :⁽²¹⁾
فـيـ بـسـاطـهـ هـوـاـهـمـ ضـمـ الصـبـوـحـ شـمـلـيـ وـلـاـ بـصـرـتـ سـوـاـهـاـ بـيـنـ الدـنـانـ سـاـقـيـ
شـرـبـ مـنـ غـيـرـ عـقـلـ حـتـىـ دـبـاـتـ ئـمـلـيـ فـيـ كـنـائـنـ جـسـدـيـ مـنـ هـاـمـتـيـ لـسـاـقـيـ
ويـوضـحـ الـمـنـدـاسـيـ فـيـ عـقـيقـتـهـ أـنـ الـخـمـرـةـ الـتـيـ يـعـاـقـرـهـاـ لـيـسـتـ الدـنـيـوـيـةـ
الـمـسـكـرـةـ الـمـنـبـوـذـةـ الـمـحرـمـةـ إـنـمـاـ هـيـ خـمـرـةـ مـعـنـوـيـةـ صـوـفـيـةـ يـنـشـيـ بـهـ شـارـبـهـاـ دـوـنـ
شـرـبـهـاـ فـهـيـ مـتـخـيـلـةـ :⁽²²⁾

كـلـمـاـ ثـقـلـ شـارـبـهـاـ يـزـيدـ سـلـوـانـ فـوـزـ قـوـمـ لـذـلـكـ الـمـقـلـمـ وـصـلـوـاـ

هـ- الوصول إلى الحبيبة مكة المكرمة : يسعد المنداسي بنجاح رحلته الطويلة التي تفني خالها بنفسه وأحزانها وتذكر أحبته ومدح الرسول ﷺ وقومه وقد وصل إلى مكة المكرمة فها هي تتاجيه من بعيد وتدعوه مرحباً وهو بدوره يشيد ب المقدسات الآمنة فقول :⁽²³⁾

الْحَبِيبُ دُعَانِي بِلْطَافَةِ الْمَعَانِي
سَرِيْ بَيَنْتُ الْكَرَمْ سَرَانِي سَيِّمْ رَوْضَهُ
طَيِّبٌ نَفْسِي خَلِيلٌ يَسْعَاكَ مَا سَعَانِي
دَأْ مَقْامٌ رَفِيعٌ أَبْغَتَاهُ قَلِيلٌ عَوْضُهُ
مَقْامٌ طَهَ الْمَكِيْ بَيَتُ الرُّضَى وَالْأَمَانُ
مَا تَرَوْعَ مَنْ وَحْشَهُ قُلْتُ مَنْ وَصَلَ لَهُ
حَطَّ رَحْالَكُ بِحَادِي الْعَيْسِنْ كُنْ مَضْمَانُ
دَيِّ مَنْازِلُ مَنْ قَالَ اللَّهُ عَلَيْهِ صَلَوْا
وَعِنْدَ وَصْولِ مَكَةِ الْحَبِيبَةِ يَطْلُقُ الْمَنْدَاسِي عَنَانَ وَصَفَ أَمَاكِنَهَا الْمَقْدِسَةَ
مِتَفَزِلاً بِجَمَالِهَا الْمَادِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ فِيهَا مَسَكُ الْحَبِيبِ، وَيَعْمَرُهَا أَحْبَابُ اللَّهِ :⁽²⁴⁾
هَذِيْ هَيِّ الدِّيَارُ بِأَكِيْ الْأَرْسَامُ عَرَاتٌ يَدُ النَّسِيْبِ لِلْمَدْحُ خَطَاهَا
هَذِيْ الرُّوحُ الْمُقَدَّسَةُ رَاحَةُ الْأَجْسَامُ مَثْنُ الْبُرَاقُ مَالُوكُ الْمُلْكُ مَطَاهَا
هَذِهِ عَيْنُ الْوُجُودِ وَالرَّحْمَةُ طَهُ

وفي الرحاب المقدسة يغرف المنداسي من بحر إيمانه ويتذكر ذنبه وإسرافه على نفسه فيقدم نصيحةً لمن يستمع لشيطان الإنسان، فعليه أن يكتف

وييرتقى بنفسه وهذه فرصة للتغافل عن الذنب والشرور، حيث يقول :⁽²⁵⁾

أَيْقَضَنِيْ مَنْ سُنْتُ الْبَطَالَةُ جَفَنْ لِلْهُوْ
مَا يَعْدَمْ فَضْلٌ مَنْ بَقَى لَهُ رَأْسُ الْمَالُ
وَأَنْرَكَ فَلَكُ الْمُخَاطَرَةُ يِنْ بَحْرُ الرَّهُوْ
تَامَنْ غَرْقَكُ إِذَا ارْتَجَ الْبَحْرُ وَمَالُ
لَا يَجْتَنِيْ بَكُ لِلْمَهَالِكُ رَيْخُ السَّهُوْ
وَأَحْذَرُ شَيْطَانَ الْأَئْسِنْ يَا صَاحِبِيْ عَمَالُ

وـ- سرد أحداث السيرة النبوية : وينتقل المنداسي إلى العقيقة إلى الحديث عن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، متعرضاً إلى الذين وقفوا ضد الدعوة الإسلامية وما سيلاقونه من عذاب من الله تعالى :

هَأْكُ بَعْضُ أَخْبَارِ الْهَجْرَةِ بِكَفْظِ مَلْحُونٍ
مَا ثَخَافُ مَنْ الْلَّوْمُ إِذَا بَيَغْتُ تَرْوِيَهُ
بَشَرٌ عُمْرًا سَفِيْهُ وَالْحَرْبُ الْمُرْتَدُ
بَأْيَوْاعُ مَنْ الْعَذَابُ تَرْجَاهُمْ وَالضَّيْرُ

ويخبرنا الشاعر عن حادثة اجتماع قريش لقتل الرسول ﷺ وعدم استجابة قلوبهم للدعوة الإسلامية، ويبين لنا كيف نجا من مكيدة الكفار، وذلك بخروجه مع الصديق رضي الله تعالى عنه بأمر من الله تعالى، وكيف خرجت قريش تبحث عنهم لكن الرعاية الإلهية حفظتهم من كل سوء وهي معجزة الله تعالى لنبيه الكريم :⁽²⁶⁾

يَمْكُرُوا بِمَظْفَرِ يَحْيَى النُّفُوسُ ذَكْرُهُ
يَهْجُرُوا مُحَمَّدًا حَاسْأَا يُكُونُ فَتَانُ
حَيْنٌ شَافُ الصَّدِيقِ أَمْرُ الْخُرُوجِ قُرْبُ
يَبْيَنُمَا وَالرُّوحُ بَعْيَنُ الْوُجُودُ غَربُ
خَرَجَتْ شَعْنَى كَبَارُ مَكَّةُ وَصَنْعَارُ
صَمُّوَا وَأَعْمَأُوا النَّبِيُّ فِي وَسْطِ الْغَارُ
ضَحَّكَتْ بَابُ الْفَرْجِ لَطَهُ وَالصَّدِيقُ
خَرْجُوا بَحْرُ الْمُحَاطَرَةِ وَغَرْقُ فَرْعَوْنُ

ويتحدث الشاعر عن فتح مكة ويعتبره حدث هام في تاريخ الدعوة الإسلامية فيقول:⁽²⁷⁾

فَتَحَّ مَكَّةً هُوَ الْيَعْدُ الْفَضِيلُ الْأَكْبَرُ وَلَا بُحَالُهُ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ مَوْسَمٌ سَعِيدٌ
ز- الفخر الذاتي : يتمركز الفخر بالنفس في آخر القصيدة وهو آخر الأغراض التي زخرت بها العقيقة، فالمنداسي يفتخر بنظمه ومدحه للرسول ﷺ كما يوضح لهاته بقلة التجربة الشعرية أنه مصقول الموهبة ضليع في الشعر وضروبه متمكن من ضبط عروض قصائده، ونظمه للملحون كان بداعي التلقى لا عن عجز، حيث يقول :⁽²⁸⁾

لِلْبُسَاطِ عَلَيْهَا لِلنَّاظِرِيْنِ رَوْنَقْ
دُونَهَا كَفُ الْفَخْرِ بِرَاجِمِ الْخَدْرِيْقْ
كُلُّ مُتَصَّنِّعٍ يَتَحَبَّلُ لَبَدًا عَلَيْهِ غَرْلَهُ
مَا يَنْصَرِنِي إِذَا تُرْوُمُ الشِّعْرُ خَلِيلُ

رَفَقْتُ قَصِيدَةً بُوْعِثَمَانُ كَالْخَرِيدَةُ
يَا لَهَا مَنْ حُلَّهُ فَيُ عَصْرَنَا فَرِيدَةُ
مَا يَحْرَرُ مَعْنَى مَنْ لَا يُ فِي الْعَرُوضِ وَرَازَانُ
الْوُزْنُ لَقَنِي الْعَصَاصَا عَلَى بَابِي وَأَرْتَاحُ

ويواصل المنداسي فخره بنظم العقيقة ويعتبرها ياقوتة في مدح خير البرية
وبيان سيرته ضمنها أشواقه للروضة الحبيبة، فمنها تفوح أطيب الروائح وأذكى
النسائم :⁽²⁹⁾

هَالْ كُمَانْ بَارْأَوِيْ
فَصَلْ دَرْ بَيْانْ بَهَا بَارْأَوِيْ
أَرْقُمَانْ نَسِيمْ وَأَعْدَبْ مَنْ حَمْرَأَوِيْ
رَوْنَقْهَا فَلَيْقُ الْبَدِيعُ الزَّهْرَأَوِيْ

فهذه العقيقة هذه من اجود اشعاره مستلهمة من العلاقات السبع في نظمها
ومعانيها وتعابيرها وعروضها وهذا يدا على الثقافة الشعرية والأدبية للمنداسي
 فهو ينظم عن علم ودرية، فالله هو الذي ألم به هذه الموهبة :⁽³⁰⁾

قَوْيِيْ بِبَدَائِعِ السَّبْعِ الشَّدَادِ وَالْحَوْلِ
مَنْ خَلَقَنِيْ وَهَدَانِيْ لِلْبَيْانِ ذُو الْطَّوْلِ
وَسَبْعَ عَلَيْيِيْ مِنْ نَعْمَاهِ ثَوْبِيْ وَإِيقِيْ
حـ الصلاة والسلام على النبي : اهتم المنداسي في عقيقته بالإكثار من
الصلاوة والسلام على النبي ﷺ، لعلمه بقيمتها عند الله تعالى في نفسه وعنده
المؤمنين، فها هو في ختام القصيدة يغدو لسانه رطباً بها، ذاكراً خيراً العباد
وأفضلهم، تبركاً به وراجياً أن يجزيه المولى خيراً الجزاء، وهذه الظاهرة شائعة
عند كل شعراء الملحقون حيث يفتتحون القائد بالصلاحة والسلام على الرسول ﷺ
ويختتمون أيضاً بها كلامزة لا تفارق عبارات قصائدهم، فالمنداسي احترم هذا
العرف حيث يقول :⁽³¹⁾

وَالسَّلَامُ عَلَى الْهَادِيِّ مَا تَرَاكمُ الْقَوْلُ
مَنْ كَنْزَ عَلَى الْقَوْمِ الضَّالَّةِ خَوَافِيْ
مَنْ عَلَيْهِ اللَّهُ صَلَّى فِي قَدِيمِ الْأَزْمَانِ
قَبْلَ كَوْنَ وَلَا كَانَ كَوْنَ قَبْلَهُ
وَالرَّضِيُّ عَنْ شِيَخِيْنِ أَهْلِ الْهَدِيِّ عُثْمَانِ
خَيْرِ صَحْبِهِ وَالسَّبْعِ الْمُوضَحِيْنِ سَبْلَهِ
وَاسْبِلَ عَلَيَا يَا رَبِّيِّ ثَبَاتِ الْأَمَانِ
يَا كَرِيمِيْ أَنْ يَحْيِي مَيْتَ الْجَرَوْزِ وَبَلِهِ

6 - خاتمة: وفقاً لهذه الموضوعات بنيت العقيقة في مدح الرسول ﷺ فقد
اتبع المنداسي في نظمها طريقة القصيدة التقليدية، حيث قام بحشد مجموعة من
الموضوعات التي تخدم وتتصب في موضوع واحد وهو مدح خير البرية ﷺ، ليشيد
معمار هذه المنظومة الممتعة في ألفاظها، فقد أحکم أسلوبها، وضبط صورها

الشعرية، واستطاع أن يجلب المتألق رغم طول العقيقة دون ملل أو كسل، فقد استطاع إيصال معانيه وأفكاره ونال المبتقى بمدح الحبيب المصطفى.

لقد اجتهد الشاعر في رصف الكلمات والمعاني المعبرة عن حبه للنبي ﷺ، ويحشد مختلف الصور التي توضح صفاته وأخلاقه وقيمه عند الله وعند الخلق أجمعين، ومتطرقاً لسيرته ومسيرة الدعوة التي خاضها أصحابه الكرام رضوان الله عنهم، وقد «استمد صوره ومعانيه من السيرة النبوية، ومما ذكره السابقون في هذا المجال، بل هو تقليد بما وصفه به شعراء الفصحي ويبدو هذا في بعض القصائد التي تعرض لهذه الناحية»⁽³²⁾.

من خلال قصيدة العقيقة الطويلة عبر المنشاوي عن شوقة للحرمين نلاحظ أن همه الوحيد كان التعم بالأماكن الإسلامية المقدسة، وذلك بالسفر إليها وفي رحابها يسرد علينا سيرة الحبيب من عقبها ورياحينها، ولم يكن يسرف في الحديث عنها، وهذا ربما راجع إلى تصوراته الصوفية، ولم يكن الشاعر ذلك الشيخ الشارح الواصف لمناسك الحج بطبع تقليدي، فهو في منهجه يبعظ معظم الشعراء الشعبيين الذين «نظروا إلى الأماكن المقدسة من ناحية العاطفة الدينية البعثة، بصرف النظر عن جوهر الدين الذي أعطاها هذه الميزة الخاصة، ولم يعنوا كثيراً بالزاوية الأخرى التي عنى بها شعراء الفصيح باعتبارها مهداً للدين الحنيف، وما أتى به من قوانين وتشريعات ومبادئ حررت الإنسان من الشرك والوثنية»⁽³³⁾.

الموامش :

-
- 1- زكي مبارك : المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة د ط، د ت، ص 17.
 - 2- نفسه، ص 11.
 - 3- عباس الجراوي : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1982، ص 141.
 - 4- نفسه، ص 10.

- 5- نفسه، ص 142.
- 6- عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ص 205 .
- 7- نفسه، ص 214.
- 8- هو سعيد بن عبد الله التلمساني المنشا المنداسي (بلدة منداس بغليزان) الأصل، من فحول الشعر الملحون الجزائري عاش بتلمسان في القرن الحادي عشر الهجري، توفي سنة 1088هـ/1677م. (ينظر : ديوان سعيد المنداسي (الشعبي): تقديم وتحقيق : الأستاذ محمد بخوشة، مقدمة الديوان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص 06. وينظر : ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي: تحقيق وتقديم: ربح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط ص 05).
- 9-أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ط 02 1981، ج 02، ص 181 .
- 10-ينظر : الخصائص الفنية للشعر الشعبي عند المنداسي، عبد الحق زريوح، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تلمسان ، معهد الثقافة الشعبية، تحت إشراف : عبد الحميد حاجيات، 1991 ص 93.
- 11-نفسه، ص 93 .
- 12-المنداسي، الديوان الشعبي، ص 05 .
- 13-نفسه، ص 05 .
- 14-نفسه، ص 13.
- 15-نفسه، ص 05.
- 16-نفسه، ص 05.
- 17-نفسه، ص 05.
- 18-نفسه، ص 06.
- 19-نفسه، ص 06.
- 20-نفسه، ص 06.
- 21-نفسه، ص 06.
- 22-نفسه، ص 06.
- 23-نفسه، ص 07.
- 24-نفسه، ص 07.

- .07 -نفسه، ص 25
 - .29 -نفسه، ص 26
 - .08 -نفسه، ص 27
 - .38 -نفسه، ص 28
 - .08 -نفسه، ص 29
 - .08 -نفسه، ص 30
 - .08 -نفسه، ص 31
- 32- عبد الله الركبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر ، ط1981، 1، ص .384
- .438 -نفسه، ص 33